المدخل العام

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً: الصياغة المعرفية لإشكالية البحث

يحضر علم الاجتماع في العالم العربي على أساس أنه علم يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية والعلاقات والتفاعلات الإنسانية، ومادام يصنف ضمن دائرة العلم، فهذا يمنحه حصانة فكرية من النقد المعرفي، فتغيب عن كثيرٍ من الدارسين لهذا التخصص في العالم العربي، الأبعادُ الفلسفية والمضامين الحضارية والثقافية التي تولد عنها هذا الحقل المعرفي في المجتمعات الغربية؛ لذلك يبدو الوعي الإبستيمولوجي بالسوسيولوجيا الغربية كلحظة جزئية من لحظات إدراك العقل العربي لآليات اشتغال العقل الغربي في مجال الدراسات الاجتماعية. وتحت سطوة الانحطاط الحضاري والعجز المعرفي، تم استيراد هذا العلم من الحقل المعرفي الغربي، كما تستورد الأشياء المادية دون مساءلة نقدية لطبيعته الفلسفية أو أبعاده الإبستيمية التي شكلته في ذلك الحقل؛ إذ استطاع العقل الغربي تحويل الذات الإنسانية إلى موضوع للدراسة العلمية في عصر الحداثة.

لكن في ظل التطورات التي عرفتها فلسفة العلوم المعاصرة، والتي تعنى بدارسة تاريخ تطور العلوم، وبأشكال التراكم العلمي، وبالدراسة النقدية للآليات المنهجية المستخدمة في تشكيل المعرفة في الحقول العلمية، تم تطوير أداة معرفية في غاية الأهمية، يمكننا من خلال توظيفها أن ندرك المنجزات المعرفية والمنهجية للعقل الغربي في كليته، لا في جزئيته، وهي النموذج المعرفي (البراديغم)، الذي يتأسس على رؤية العالم، تلك الرؤية التي تتكون من بنية مفاهيمية منسجمة، تجيب عن الأسئلة النهائية والكلية المتعلقة بـ: الإله والكون والإنسان والحياة والوجود، فيتم تحويل هذه المفهومات إلى مقدمات في النموذج المعرفي؛ ليتمكن من خلاله الباحثون من توليد المعارف في مختلف الحقول المعرفية الفرعية.

لذلك؛ تكشف القراءات التفكيكية النقدية أن الأصول المعرفية للنموذج المعرفي الغربي، الذي فاضت عنه بقية المعارف والعلوم والفنون والآداب، قد شيدت على البعد المادي، الذي تمثله الفلسفات المادية والتجريبية المتمركزة حول الإنسان، والتي ترى أن أصل الوجود يرجع إلى عالم المادة، وأن العالم

المادي يحوي ما يكفيه من أدوات التفسير، وعلى البعد المعرفي العلماني الذي يقضي بفصل الدين عن دائرة المعرفة والعلم والحياة الإنسانية بصفة عامة؛ لذلك نجد عناصر النموذج المعرفي مبثوثة في كل تنظيرات العلوم، ومن بينها النظريات في علم الاجتماع الغربي، تلك النظريات الاجتماعية التي حاول علماء الاجتماع الغربيون نحتها كما في العلوم الطبيعية، لإخراج علم الاجتماع من دائرة الفلسفة الاجتماعية إلى دائرة المعرفة العلمية محتذين بالمنهج العلمي الطبيعي؛ إذْ عرفوها على أنها جملة من القضايا المنطقية المتسقة فيما بينها، تستطيع الطرائق التجريبية أن تتحقق من صدق فرضياتها، غير أن الأبعاد الأيدلوجية التي هيمنت على ممارسي عملية التنظير في علم الاجتماع الغربي، أدت إلى تشظيها إلى العديد من النظريات الفرعية، وتكشف الدراسات النقدية لهذه النظريات أنها تحولت عبر العديد من الممارسات المتواصلة في الحقل المعرفي الغربي إلى نماذج معرفية فرعية، تستلهم من النموذج المعرفي الأصلي -الكلي مسلماتها (افتراضاتها)، إضافة إلى التغيرات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الغربية التي منحت النظرية الاجتماعية مشروطية تفسيرها للظواهر، لكن يظل فعل التنظير في علم الاجتماع، ينهل من رافدين يحكمان المنظومة الفكرية الثقافية الغربية، وهما: الفلسفات الرومانطيقية الإنسانية التي أعلت من قيمة الذات على حساب الموضوع، والفلسفات العقلانية التجريبية التي أعلت من قيمة الموضوع على حساب الذات، وكلاهما يتفق على شطب أيّ مصادر أخرى للمعرفة خارج الذات – الموضوع.

غير أن التحليل المعرفي للنظرية الاجتماعية الغربية والمتفحص لجملة قضاياها، يجد أن ما تقدمه من افتراضات في شكل مسلمات "لا يرقى إليها الشك المنطقي،"ما هي إلا امتداد لمقدمات النموذج المعرفي، كمقولة: الإنسان بنية مادية يمكن إخضاعها للدراسة كمثيلاته من الذرات في العالم المادي، والطبيعة محكومة بمبدأ الصيرورة، تمكن العلم الفيزيائي من دراستها، والأمر نفسه بالنسبة للحياة الاجتماعية؛ إذْ تخضع للصيرورة ذاتها ولجملة من القوانين، يمكن أن يكتشفها العقل الإنساني.

في المقابل، تحضر النظرية الاجتماعية الغربية والنماذج التي تحتكم إليها في العالم العربي على أساس أنها مقدمات يقينية لا يمكن المساس النقدي بها؛ لأن العقل العربي أدرك علم الاجتماع على أساس أنه حقل معرفي يُعنى بدراسة الظاهرة الاجتماعية، في حين يبرز العقل السوسيولوجي الغربي كتجل للمبادئ الكلية الناظمة معرفياً ومنهجياً للعقل الكلي الغربي، فلا يمكن أن نستوعب الجزئي إلا في إطار الفهم الكلي، بمعنى آخر، أن المقدمات المعرفية التي تكون مخفية في النماذج النظرية في علم الاجتماع، لا يمكن إدراكها إلا من خلال التحليل المعرفي للنموذج المعرفي الغربي، برده إلى الرؤية المادية للوجود التي تمثل أساسه الميتافزيقي.

إذا تمت عملية مأسسة علم الاجتماع الغربي عبر صيرورة تاريخية محددة، ليصبح حقلاً معرفياً يدرس في الجامعات الغربية، فقد تأسَّس هذا العلم في العالم العربي من طرف المستعمر في أغلب البلدان العربية، وتم تدريسُه من طرفه، وبعد نيل هذه البلدان استقلالها ورثته الحكومات الوطنية، واستمرت أقسام الجامعات في تدريسه، فوظفته في البداية من منطلق براغماتي كأيديولوجيا سياسية، من أجل تحقيق التنمية الاقتصادية، واسترداد الهوية القومية في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. وبعد انهيار مشاريع التنمية في العالم العربي في مطلع التسعينيات، تم التخلي عن التوظيف السياسي لهذا العلم، مما أدخله في أزمة أكاديمية حقيقية؛ إذْ يعاني اليوم من مفارقة عجيبة، هي تنامي عدد الدارسين له في الجامعات العربية، في المقابل، الهزال المعرفي الذي يطبع جزءاً مهماً من أعماله؛ إذْ أرجع بعض الباحثين هذا الهزال المعرفي إلى الطبيعة الفنية لمشكلة علم الاجتماع الأكاديمي، ممثلة في نقص الكتب والمراجع، وضعف التدريب المنهجي؛ نتيجة للضغط على الجامعات العربية، لتزايد أعداد الطلبة الملتحقين بها، وإلى قصور مناهج التكوين، وضعف الأداء البيداغوجي للمدرسين لهذا الحقل، وإلى غياب اهتمام الحكومات بالبحوث الاجتماعية في رسم السياسات العامة.

تكشف القراءة النقدية التفكيكية للآليات التي استخدمها العقل العربي لتوليد السوسيولوجيا، أنها المسؤولة عن هذا الهزال المعرفي في هذا التخصص، وهي

لا تخرج عن الآليات التي استخدمها العقل العربي في توليد المعرفة منذ صدمته مع الحداثة الغربية، وتتمثل هذه الآليات في استعارة المنهج والنظريات والأدوات البحثية من الحقل المعرفي الغربي، ويتم الوعي المعرفي بها على أنه جملة من المعارف الإجرائية الجاهزة، يستطيع الباحث إذا وظفها أن يولد خطاباً سوسيولوجياً حول المجتمع العربي، وتظهر طريقة اتصاله بالمعارف الغربية؛ إذْ يفصل العقل بين محتوياتها المضمونية، وبين أدواتها المنهجية التي ولدتها؛ مما أدى إلى إصابته بحالة فصام معرفي، لم يتمكن إلى الآن من تجاوزها.

في المقابل، هناك من الباحثين من أرجع أزمة علم الاجتماع في العالم العربي، إلى البعد الإبتسيمولوجي المتعلق أساساً بعدم قدرة النظريات الاجتماعية الغربية على تفسير الواقع الاجتماعي العربي، كنتيجة للخصوصيات التاريخية والحضارية التي ظهرت فيها هذه النظريات، والمرتبطة تحديداً بالمجتمعات الغربية. ومن منطلق نقدي للآلية الاستعارية، التي لم تتمكن من توليد المعرفة السوسيولوجية، حاول بعض الباحثين طرح بدائل معرفية لعلم الاجتماع الغربي، فهناك من دعا إلى تأسيس علم الاجتماع العربي بناء على فكرة مفادها أن حضور المجتمع العربي كموضوع في الدراسات الاجتماعية، يمكننا من صياغة نظرية اجتماعية عربية، نتمكن من خلالها من دراسة المجتمع العربي، وهناك من دعا إلى علم الاجتماع الإسلامي، عبر تحقيق الانسجام بين الخطاب الديني والخطاب السوسولوجي، غير أن عدم طرحهم لفكرة المنهج في عملية التأسيس المعرفي، أبقت دعواهم حبيسة الأوراق والملتقيات، ولم تؤسس لما هو علمي.

طُرحت قضية التأصيل المعرفي لعلم الاجتماع في العالم العربي، من قبل باحثين لديهم وعي إبستيمولوجي بآليات اشتغال العقل الغربي في حقل السوسيولوجيا، وعلى الرغم من تباين منطقاتهم الفكرية والأيديولوجية، إلا أنهم أبرزوا أن علم الاجتماع يعاني من أزمة إبستمولوجية، لن يكون حلها إلا من خلال التفكير في الجانب المنهجي، فمنهم من اختار فلسفة التنوير كإطار للتفكير والحداثة الغربية كمرجع للتحليل والتفسير، واعدّوا أن منجزات العقل الغربي منجزات كونية، ومن

مبدأ قابلية تعميم استخدام المنهج الوضعاني، اعتبروا عملية التأصيل هي عملية توطين معرفي لعلم الاجتماع في المنظومة الفكرية العربية، شرط أن يتخلى العقل العربي عن العطالة الفكرية، التي مردها جملة من المعيقات الإبستيمولوجية، يأتي على رأسها هيمنة التراث على مناهج تفكيره وأدواته؛ لذلك وفق تصورهم، لم يستطع استيعاب منجزات الحداثة الغربية، والتي من بينها السوسيولوجيا، إلا أن غالبية من اشتغلوا على هذه الفكرة، ينحدرون من التيارات الفلسفية العربية، التي اهتمت بالتأسيس الكلي للعقل العربي، ولم يكن همها التأسيس للعقل الجزئي في السوسيولوجيا، غير أن دعوتهم شابها التناقض المعرفي، وبدت أقرب إلى الفكر الاستشراقي من الفكر العربي الإسلامي.

في حين رأى دعاة التأصيل الإسلامي للعلوم من منطلق الرؤية الإسلامية، أن العلوم الاجتماعية الغربية محكومة بالخلفية الفلسفية والعقائدية للنموذج المعرفي الغربي؛ لذلك لا يمكن الاعتماد عليها في دراسة المجتمعات العربية التي تحكمها الرؤية الإسلامية إلى الوجود، فيعني التأصيل برأيهم القراءة النقدية الواعية لهذه العلوم لاستيعابها وتجاوزها، والاستيعاب المعرفي للتراث الإسلامي لإعادة الوصل به، إلا أن مفهوم التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية أخذ بعدين بحسب طبيعة الخلفية الفكرية للباحثين الذين تناولوا مفهوم التأصيل، فالباحثون في مجال العلوم الإسلامية – الشرعية–، عدّوا أن منطلق التأصيل يبدأ من ضبط المفاهيم الإسلامية حول الإنسان والمجتمع والقيم، بينما رأى ذوو الخلفية الفكرية الفلسفية والعلمية أن التأصيل، يعني أسلمة العلوم الاجتماعية من خلال إعادة صياغة المعرفة على أساس من علاقة الإسلام بها، وإعادة النظر في استنتاجات هذه العلوم، ويعني بالضرورة تأصيل المفاهيم من زاوية المعرفة الإسلامية، وفهم العلوم الحديثة واستيعابها في أرقى حالات تطورها والتمكن منها، وتحليل واقع تلك العلوم نقدياً؛ لتقدير جوانب القوة والضعف فيها من وجهة نظر إسلامية المعرفة.

إن إسلامية المعرفة هي قضية منهجية، تسعى إلى إبداع منهج، يُمكِّن العقل الإسلامي من توليد المعرفة في الحقول الدراسية المختلفة، انطلاقاً من الرؤية

الكونية التوحيدية المستنبطة من الوحي الرباني؛ لذلك دعا ممثلوها إلى الأخذ بالنموذج المعرفي الإسلامي، ومقدماته المنهجية في دراسة الظواهر، وإسلامية المعرفة كمنهج نقدي يسعى للكشف عن الإحالات المادية للفلسفات الوضعية الغربية المعاصرة في دراسة الظواهر، التي أدخلت العلوم الغربية في أزمة معرفية حادة، وهنا، تلتقي مدرسة إسلامية المعرفة مع مدرسة فرانكفورت في نقد العقل الأداتي الغربي، غير أنها تختلف عنها في المنطلق التأسيسي لفعل المعرفة، الذي تعدّه امتداداً لقراءة الوحي الرباني، وتلتقي مدرسة إسلامية المعرفة مع التيارات الفلسفية لما بعد الحداثة في تفكيك النموذج المعرفي في الحداثة الغربية، التي ركبت على أساس أن الإنسان هو مركز الكون؛ لكن تختلف عنها لأن مشروعها ليس إعادة الاعتبار للإنسان بوصفه انساناً عانى من قهر الحداثة الغربية، بل أن يعيد الإنسان اكتشاف ذاته في الوحي الرباني؛ لذلك طرح دعاة إسلامية المعرفة منهج الجمع بين القراءتين، لتجاوز الإحالات العلمانية للفلسفة الوضعية المنطقية، من خلال الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون، والعمل على الدمج بين منهجية التشيؤ ومنهجية الخلق في تفسير الظواهر الاجتماعية.

إن عملية التأصيل الإسلامي لعلم الاجتماع من زاوية إسلامية المعرفة، تعني التفكير في كيفية دمج هذا العلم في المنظومة المعرفية الإسلامية؛ لكن السؤال المطروح: ما هي الآليات التي نستخدمها في ذلك؟

– هل نعتمد على آلية التقريب التي استخدمها العقل الإسلامي في التراث؛ لتقريب العلوم المنقولة من المجال التداولي اليوناني كعلم المنطق، شرط عدم الإخلال بأصول هذا المجال المتمثلة في الأصل العقدي واللغوي والمعرفي، أي بمعنى آخر، كيف نفصل بين الرؤية المادية العلمانية التي ولدت مضامين علم الاجتماع الغربي، وبين الأدوات المنهاجية التي وظفها في دراسة الظاهرة الاجتماعية؟

– وهل يعني التأصيل أيضاً التفكير في طبيعة المنهج الذي يمكننا من دراسة الظواهر الاجتماعية؟ فهل يمكن أن نوسع استخدام المنهج الأصولي كأحسن صناعة تراثية للعقل الإسلامي في مجال العلوم الإسلامية؛ ليستوعب دراسة

الظواهر الاجتماعية؟ وهنا، يعني التأصيل، تمديد النص الديني؛ ليستوعب الظاهرة الاجتماعية، أم يجب التفكير في منهج يستوعب المنهج الأصولي ويتجاوزه في الآن نفسه، من خلال الفصل المنهجي بين الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، والنموذج المعرفي الإسلامي المتولد عنها، فيطرح التأصيل علىٰ أساس إبستمولوجي من خلال ترتيب المستويات المعرفية والمنهجية في دراسة الظواهر.

- وهل يعني التأصيل الإسلامي لعلم الاجتماع ضرورة أن ينهل من مقدمات النموذج المعرفي الإسلامي؟ وأن لا ينتهك ميثدولوجيا المنهجية الإسلامية؟ التي من أساسياتها عدم الفصل بين الموضوع والذات في دراسة الظواهر، أي الأخذ بالرؤية التكاملية في دراستها، وأن يحقق أهم مطلب منهجي هو الجمع بين مصادر المعرفة (العقل والوحي والكون - الوجود الاجتماعي) في توليد المعرفة الاجتماعية؛ لذلك تأتي هذه الدراسة استكمالاً للجهود التي بذلت في التأصيل الإسلامي لعلم الاجتماع، من خلال السعي للإجابة عن التساؤلات التالية:

١- ما هي الأبعاد الإبستيمولوجية لعلم الاجتماع الغربي؟ وما هي العناصر المشكلة لبنية النموذج المعرفي الغربي؟ وكيف تحول إلىٰ إطار مرجعي لعلم الاجتماع الغربي؟

٢- ما هي الآليات المنهجية التي استخدمها العقل العربي لتوليد السوسيولوجيا في العالم العربي؟

٣- ما هي البدائل المعرفية والمنهجية التي طرحها العقل العربي لتأسيس علم اجتماع خاص بالمجتمعات العربية؟

٤- ما المقصود بإبستيمولوجيا إسلامية المعرفة؟ وما هي خصائص الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم؟ وما هي العناصر البنيوية للنموذج المعرفي الإسلامي؟

٥- ما هو مفهوم التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية؟

٦- ما هي مرتكزات التأصيل الإبتسيمولوجي لعلم الاجتماع (علم العمران الإسلامي)؟

ثانياً: المنهج المستخدم في البحث

لقد توسلنا بمجموعة من المناهج المعاصرة التي تحددت انطلاقاً من الموضوع نفسه، وبما تقتضيه الإجابة عن التساؤلات التي أثارتها إشكالية الدراسة، وتنتمي هذه المناهج إلى حقول معرفية عدة، دائرة فلسفة العلوم وعلم اجتماع المعرفة، ونظرية المعرفة الإسلامية. ويأتي أولها المنهج التحليلي النقدي، من خلال تحليل النموذج المعرفي الغربي إلى مقدماته ومسلماته المعرفية الأولية، والوقوف على الخلفية الفلسفية والفكرية التي شكلته، ورؤية العالم التي بلورته، وكيف تحول إلى إطار مرجعي لعلم الاجتماع الغربي، وثانيها، المنهج الأركيولوجي (منهج تحليل المضمون المعرفي)، الذي يعنى بالحفر العميق في طبقات المعرفة، وثم توظيفه في دراسة الآليات المنهجية التي استخدمها العقل العربي في توليد السوسيولوجيا في العالم العربي، والوقوف على المناهج والخلفيات التأسيسية للسوسيولوجيا العربية، والحفر المعرفي في البدائل التي طرحها العقل العربي لعلم الاجتماع الغربي، وأخيراً استخدمنا النموذج (البراديغم) بوصفه أداة معرفية مهمة في عملية التفكيك المعرفي لمقدمات النموذج الغربي، وأداة مهمة في عملية التركيب المعرفي في إسلامية المعرفة، وفي عملية التأصيل الإسلامي لعلم الاجتماع.

* * *